

سلسلة الثقافة السياسية

الاستعمار في ديار الاسلام

بقلم

القومي غويي

سلسلة الثقافة السياسية

تصدر منها تباعاً الحلقات التالية :

- النصارى في الشرق (ظهر)
- الوحدة العربية : نشأتها وعوامل تطورها (ظهر)
- الاسلام حيال الدول العظمى (ظهر)
- مشكلة المضائق والعلاقات التركية الروسية (ظهر)
- الاستعمار في ديار الاسلام (ظهر)
- تركيا بين جبارين
- الانكاز في بلاد العرب
- الاحزاب السياسية في الولايات المتحدة
- القوى السياسية في العالم : النصرانية ، الاسلامية ، اليهودية
- عقدة ايران امس واليوم
- الاسلام واوروبا
- باكستان : دولة اسلامية في الهند
- القضايا الكبرى في السياسة العالمية
- ما هي السياسة ؟

ممثل

الاسلام المعاصر يتقف حائراً على مفترق . فهو فخور بغضيه ، مهتز بالفابر من ابحاده . ويعتقد انه يستطيع استئناف رسالته بعد هجعة طويلة وحجارة الغرب في مضمار العلوم والفنون . ولكنه لا يدري اي الطرق يختار . ويتميب الانتقال الفجائي من حالة الغيبوبة غير الكاملة الى الوعي الكامل لان الطفرة غير مأمونة العواقب .

والاسلام المعاصر حريص على طابعه ، ضنين بمقائده وتقاليده ، فكيف يمكنه الحفاظ عليها جميعاً في محاولته تعويض ما فات والحقاق بالغرب الذي قطع شوطاً طويلاً في مضمار الرقي والحضارة ؟ كيف يمكنه اجتياز مرحلة الانتقال من شبه الجمود الى النهضة الجبارة دون ان يتغلى عن بعض التقاليد التي تعوق سيره وتشل حركته ؟ لقد استطاع الاسلام ، بفضل حيويته الدافقة وقوته المعنوية ، ان يرد عنه تيارات الآراء والمبادئ الهدامة ، وان يصمد في وجه المسيحية ويدحرها في افريقيا وآسيا . ولكن أليكون فوزه في هذا المضمار دليلاً على قابلية الشعوب الاسلامية للتطور ولجسارة الامم الغربية في مياهن غاب عنها الشرق احقاباً طويلة من الزمن لينطوي على نفسه في شبه غيبوبة ؟

هذه هي الاسئلة التي تنبادر الى الاذهان كلما وضعت امكانيات الشعوب الاسلامية في الميزان .

يتوقف نجاح المسلمين في نهضتهم المعاصرة على تحقيق الوحدة

الإسلامية . ولكن هذه الشعوب ذات الحضارة القديمة ، الطامحة الى احتلال مركز الصدارة بهفتها امة قتيه ، ما تزال بعيدة عن الوحدة ، لان الصراع بين القديم والجديد في دنيا الاسلام قسمها ويقسمها شطرين : شطر زاده الاستعمار الغربي والافكار الغربية نفوراً من الاجنبي فانطوى على نفسه لا يريد التعرف الى ما يعده مخالفاً لتعاليم دينه ، وشرط استهواه الغرب بنهضته وافكاره فقطع كل صلة تربطه بالماضي واخذ بالجديد من اسباب الحضارة والرقى .

الا ان زعماء النهضة الاسلامية المعاصرة يعتقدون ان في وسع امتهم القتيه استغلال متاعب الغرب والفوضى التي يتخبط فيها . فقد ابدى هذا الرأي « محمد اسعد بك » المؤرخ التركي في كتابه « الله اكبر » عندما قال : « تشهد اوربا المنفسخة المنقسمة على نفسها ، اوربا التي تنهشها حى الحقد والبغضاء والحسد والخوف - تشهد تطور الاسلام ونهضته بغير اكثراث . وقد فاتها ان الامة المحمدية ، التي تبدو ضعيفة ، ما تزال قتيه ، تتحين الفرص لتخرج مجدداً من الصحراء وتتقضى على بلدان الحضارة الغربية الواهنة القوى . »

ولكن الغربيين ليسوا بغافلين عما يرسمه الاسلام من خطط للمستقبل . وليس ثمة ما يدل على ان شمس الغرب آذنت بالغروب . فالحرب العالمية الثانية لم تحرر الشعوب الاسلامية ولم تدك صرح الحضارة الغربية من اساسه . وقد تدرك الامم المسيطرة غداً ان استمرارها في التناحر ليفضي بها الى زوال سيطرتها ، فتعبد الى نهج خطة موحدة ازاء الاسلام الناهد للتحرر ، واضعة العراقيل في طريق موجته المتصاعدة ، ولكنها عراقيل ان تحول دون بقاء الاسلام هو اياه

ودون فتحه افاقاً جديدة بإمكانياته التي لا تنفذ .

ومهما يكن من امر ، فالاسلام بوضعه الحالي قوة لا يستهان بها .
ومن هنا كان اهتمام الدول العظمى بالشعوب الاسلامية ، سيما في هذا
الاهتمام الدول الاستعمارية والدول التي ليس في عداد رعاياها محمديون .
وفي العالم قوى ليست بذات طابع قومي : كالشركات الاحتكارية
والشيوعية الدولية والفاشيكان والبعثات التبشيرية التقت الاسلام في
هذا الكون الفسيع وما عثمت ان اعتمدت سياسة اسلامية مهيمنة .
فما هي السياسة الاسلامية لكل دولة من الدول المسيطرة ؟ هذا
هو موضوع بحثنا .

سياسة بريطانيا الاسلامية

صرح سياسي بريطاني في اواخر القرن التاسع عشر بقوله : « ينبغي
لنا ان نحسب الف حساب لاقبل حركة تقوم في تركيا ، ولكل ظاهرة
جديدة في مصر ، وكل اضطراب تكون مسرحه ايران او العراق
او بورما او افغانستان . ذلك لاننا نخضع الهند لسيطرتنا . »
بهذه الكلمات حدد السياسي البريطاني سياسة بلاده الاسلامية لان
الاقطار التي عدها داخلة في ما كانوا يسمونه « دار الاسلام » ولان
موقف الانكليز من العالم الاسلامي تمليه عليهم اما تطورات الموقف
في الهند ، او حرصهم على بقاء طريق الهند حرة . ففي الحالة الاولى
لا تسقط لندن من حسابها التضامن الروحي القائم بين مسلمي الديار
الهندية وبين اخوانهم في سائر الاقطار الاسلامية ، فتعمل على ضوء
هذه الحقيقة . وفي الحالة الاخرى نحرص على صداقة البلدان الواقعة

على طريق الهند ومعظم شعوب هذه البلدان يدين بالاسلام .
وتشرف بريطانيا العظمى مباشرة او بالواسطة على اكثر البلدان
المذكورة . ومن هنا كان حرصها على عدم اغضاب العالم الاسلامي
بنهج سياسة غير رشيدة في ممتلكاتها والاقطار الخاضعة لاشرافها او
الواقعة ضمن دائرة نفوذها . وبالرغم من مرونة السياسة البريطانية ،
رأينا بعض الاقطار الواقعة على طريق الهند او الهاذية لهذا الطريق
يتبرم بسيطرتها ويحاول تحطيم النير . ورأينا البعض الاخر يتحرر فعلاً
من هذه السيطرة ، ولكن الدبلوماسية النشيطة استطاعت ارغامه على
خدمة المصالح البريطانية ، يعاونها في هذه المهمة عملاء اذكياء من طراز
الكولونيل لورنس وجرتروود بل وعبدالله فيليبي وواكستون اوغلوب .
وثمة بلدان واقعة على طريق الهند ولكنها خاضعة لاستعمار غير
الاستعمار البريطاني . فالسياسة البريطانية فيها تقوم على اثاره المسلمين ضد
الدول المحتلة او المسيطرة بحيث تنشأ في الاقطار المذكورة حالة قلقه
تقضي على الاستقرار وتمنع الدول المسيطرة من تهديد طريق الهند .
ناهيك برغبة البريطانيين في اخراج المسيطرين ليعملوا هم محلهم في
منطقة يعدونها داخلة في دائرة نفوذهم .

وفي الهند نفسها استغلت بريطانيا النزاع بين الهندوس والمسلمين ،
وتذرعت بالفتن الطائفية يذكي ناراها عملاؤها ، لتبرر بقاءها في تلك
البلاد وتؤخر تطورها السياسي . وتعتمد لندن في الهند على ما يحلو
لها ان تسميه « صداقة بريطانيا التقليدية للمسلمين » . وقد رأيناها منذ
ان ثبتت قدمها هناك تأخذ بناصر هؤلاء تشجيعاً لهم على المضي في
مخافة الهندوس ورفض التعاون واياهم ليتسنى لها ان تستغل القطيعة

بالتمكن لنفوذها وسيطرتها في البلاد .

الا ان هذه السياسة ، التي كرسها التاريخ ، كانت خلال الاعوام الاخيرة هدفاً للانتقاد في بعض الاوساط البريطانية ، فمنهج فريق من السياسة الاحرار لحكومة صاحب الجلالة بان تأخذ مطالب الوطنيين الهنود بعين الاعتبار وتعمل في سبيل التوفيق بين غلاة الهندوس (حزب المؤتمر) وغلاة المسلمين (حزب الرابطة الاسلامية) تمهيداً لمنح البلاد استقلالها دون ان يترتب على ذلك انفكاكها عن جسم الامبراطورية .

فهل تعمل الحكومة البريطانية بهذه النصيحة ؟

يلوح ان لندن ترغب في التفاهم وحزب المؤتمر الهندي ، ولكنها تحسب الف حساب لنفور مسلمي الهند من سياستها ، لعلمها ان العالم الاسلامي يغضب لغضبه سبعون مليوناً من المحمديين الذين تتكلم الرابطة الاسلامية الهندية باسم غالبيتهم الساحقة . ولا ننس ان الانكليز تعلموا على حسابهم ان الشعوب الاسلامية تتضامن في السراء تضامنها في الضراء . ففي العام ١٩١٩ احتج مسلمو الهند على اخضاع بريطانيا الاقطار العربية لسيطرة بعض الدول الاوروبية بالرغم من الوعود المقطوعة للمغفور له الملك حسين بن علي . واحتجوا اكثر من مرة على وعد بلفور وعلى السياسة البريطانية في فلسطين ومصر . فمن يضمن لانكليترا غداً سكوت المصريين والعراقيين والحجازيين والسوريين ان هي تحلت عن اخوانهم في الهند ؟

عمدت بريطانيا ، حرهاً منها على حماية طريق الهند ، الى تحقيق حلم الكولونيل لورنس : الوحدة العربية ، بعد ان توفرت لديها

العناصر المطمئنة الى ملائمة هذا المشروع لمصالحها وخططها . الا ان الخطى التي خطتها البلدان العربية في سبيل الوحدة لم تسفر حتى الان عن اكثر من منظمة اقليمية اطلق عليها اسم « الجامعة العربية » . ويبدو العرب غير متفقين بشأن الخطوة التالية . فبعضهم يقول بالوحدة والبعض الآخر بالتعاهد . ويقف الانكليز موقف المتفرج الخذر لانهم لا يرتاحون الى رؤية العرب متكئين تكتلاً قد يهدد مصالحهم ، ويقضون على « الوحدة » و « التعاهد » نوعاً من الاتحاد « الفديريالي » يبقى لكل من البلد ان صاحبة الشأن حق ادارة شؤونه بنفسه ، فيتسنى لبريطانيا ان تستغل الخصومات التقليدية والمنافسات القائمة بين بلد وآخر .

غير ان اقطاب السياسة العربية الذين يعملون مستقلين عن المرشدين البريطانيين يعتقدون ان الوحدة والاتحاد لا يفيدان العرب ما دام ثمة اقطار خاضعة للاشراف البريطاني ، ويقولون بتحرير هذه الاقطار كشرط اساسي لقيام الوحدة المنشودة . اي ان الوحدة العربية مرادفة في نظر هؤلاء للتحرر من السيطرة الاستعمارية . وهو عكس ما ينشده الانكليز من لمّ شتات العرب وتوجيههم متعدين الوجهة التي تتفق ومصالح الامبراطورية .

ولم يبق سراً ان عملاء بريطانيا و « فرسان القديس جاورجيوس » عملوا ويعملون على استمالة الزعماء العرب واقناعهم بحسن نية لندن . وقد افلح المنطق والذهب البريطانيان في حمل فريق من هؤلاء الزعماء على تبني مشاريعها في دنيا العرب ولاسيما الاقطار التي تخضع لنفوذ دول اوروبية اخرى . وسجل عملاء انكلترا فوزهم الاول سنة ١٩٤٣ لما

استغلوا بيواعة متاعب فرنسا في سوريا ولبنان واستمالوا اليهم السكان بتأييدهم المطلق لاستقلال البلدين . وقد خوجت فرنسا من دولتي المشرق ، فعلا الجو لبريطانيا الصديقة الجديدة ، وامنت خطر دولة اوروبية كانت تسيطر على بقعة تجتازها طريق الهند .

هل أمنت بريطانيا العظمى شر المزاحمة الاجنبية بخروج فرنسا نهائياً من سوريا ولبنان وبانهيار الامبراطورية الايطالية في افريقيا ؟ لقد برز الانكليز مزاحمون اقوياء هم الروس والاميركيون . فمذ ١٩٤١ شرع الروس يندفعون شطر الخليج الفارسي . وقد اغضت لندن عن هذه الحركة لانها لم تشأ اغضاب الحليف الاحمر في اثناء الحرب ، واكتفت باحتلال جنوب ايران بحجة حماية مصالحها البترولية . بيد ان موسكو ما عتمت حتى اماطت اللثام عن مقاصدها ، فهي ذات مطامع تقليدية في ايران ، وطالما وقف الانكليز حائلاً بين الدب الروسي وبين فريسته لان البلاد الايرانية واقعة على طريق الهند .

لم تشأ لندن العمل جهاراً ضد الروس في ايران فعهدت الى جواسيسها بالمهمة : فنثر هؤلاء الذهب في مناطق الحدود الايرانية - السوفياتية وحرضوا القبائل الكردية على تخريب الطرق والجسور والسكك الحديدية لمرقلة تقدم الجيش الاحمر في الاراضي الايرانية . وفي الوقت نفسه كانت الدبلوماسية البريطانية تعالج الزعماء السياسيين ورجال الدين ، وتحثهم على الوقوف في وجهه الخطر السوفياتي . فتجحت في مسعاها نجاحاً كبيراً بالرغم من وجود قوات الاحتلال الروسية في البلاد ، ومن نشاط حزب « توده » المدين بنشاته الى

عملاء موسكو .

ووقفت بريطانيا من المطامع الروسية في تركيا موقفاً مماثلاً ، فشجعت الاثراك على رفض كل مقترح سوفياتي يرمي الى اقفال البحر الاسود واشراك الروس في حماية المضائق . ولا يجمل سياسة انقره ان الانكليز يقفون هذا الموقف مبالغة منهم في الحرص على ابعاد الدب الروسي عن البحر المتوسط وبالتالي عن طريق الهند .

اما الولايات المتحدة الاميركية فمزاحمتها لبريطانيا في الشرق الاوسط حديثة العهد ، ولكنها مزاحمة تقض مضاجع الانكليز لان الاساليب التي يلجأون اليها في محاربة النفوذ السوفياتي في الاقطار الاسلامية لا تصلح لاقامة العراقل في طريق الاميركيين . فالشعوب الاسلامية لا تمضم الشيوعية ، وقد عرف ابواق لندن كيف يستغلون هذا النفور وكيف يبرزون مساوئ النظام الشيوعي ومطامع الحمر في الشرقين الاوسط والادنى . ولكن السلاح نفسه لا يصلح لمحاربة النفوذ والمطامع الاميركية . وليس ادل على قلق الانكليز من اهتمام حلفائهم الاميركيين بالشرق الاوسط مما كتبه جريدة التايمز في ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٣ ، وهذا تعريبه :

« لا تطمح بريطانيا العظمى الى الاستئثار بالنفوذ في الشرق الاوسط . الا انها ان تسمح بوقوع هذه المنطقة تحت سيطرة دولة اخرى لان تخليها عن مصالحها الحيوية هناك يقلب التوازن الدولي رأساً على عقب .

» ان انسحاب بريطانيا العظمى من الشرق الاوسط يعني انسحابها من البحر المتوسط ، طريقها الحيوي الى ممتلكاتها الواسعة ، فتقطع

كل صلة بينها وبين الهند ، وتمر خطوط مواصلاتها الاستراتيجية مع
أستراليا والشرق الأقصى عبر قناة بناما الخاضعة للسيطرة الأميركية
بعد ان كانت تمر عبر قناة السويس . فهايك بمصالح بريطانيا البترولية
في الشرق الاوسط . فتصبح بعيدة عن متناولها وعرضة للخطر في
كل لحظة .

« ان عظمة بريطانيا ورفاهيتها هما رهن استمرار نفوذها في
الشرق الاوسط . »

يتضح مما تقدم ان سياسة الانكليز في الشرق الاوسط والادنى
تهدف الى اخضاع اقطارها لاشراف بريطانيا دون سواها لان سياسة
الباب المفتوح من شأنها ان تفسح في مجال التدخل امام دول اخرى
تستطيع ان تهدد طريق الهند .

هذه هي الناحية السياسية الصرف من اهتمام بريطانيا بالمسلمين
كافة وبالاقطار الاسلامية كدول . اما الناحية الدينية فالانكليز يعنون
بها عناية خاصة لان في عداد رعايا بريطانيا مئة وعشرة ملايين مسلم .
توفرت نخبة من العلماء الانكليز على التعمق في درس الشرع
والقضايا الاسلامية الشائكة . وقد انشئ في لندن معهد للدروس
الشرقية ، ومسجدان كبيران تبرع بمعظم نفقات بنائها العظماء الانكليز الذين
اعتنقوا الدين الحنيف اما عن اقتناع ، او رغبة منهم في التقرب من
الاطراف الاسلامية ، كما فعل السير جون فيليبي رئيس دوائر الاستخبارات
البريطانية في الجزيرة العربية . وبالرغم من وجود معهد الدروس
الشرقية فالسلطات البريطانية قلما تعنى بانتقاء موظفيها الامتعماريين
بين خريجي المعهد المذكور . وليس بين هؤلاء الموظفين من تعمق في

درس الاسلام . اما رجال الاستخبارات فيضرب معظمهم بقسط رافر من العلوم ولاسيا الشرقية . ولا يكتفون بدرس الاسلام دراسة سطحية لئلا يجرحهم جهلهم الى تخطي التقاليد والعادات في اقطار يهبطونها « اصدقاء » وهو ما يقع غالباً لرجال الادارة . من ذلك ان السلطات البريطانية في العراق امرت لثلاثين عاماً خلا باقامة قداس احتفالي في الكنيسة الانجيلية ببغداد لمناسبة ذكرى مولد الرسول . وقد حسبت ان بادرة كهذه تسر السكان ، فكان لعملها صدى غير مستحب في الاوساط العراقية .

ولعل مرد جهل رجال الادارة البريطانيين للاسلام ديناً وتقاليد الى حرصهم على التقيد بتعليمات الرؤساء القائلة بعدم التدخل في الشؤون العقائدية . ففي كل بلد دينه الاسلام لا تجد في دوائر الفتوى والقضاء الشرعي ظلاً للمستشارين البريطانيين . وهي خطة ترضي السكان ، ما في ذلك ريب ، ولكنها تخرج من ايدي الحكام جانباً من السلطة لا يستهان بخطره .

سبانه فرنسا

لفرنسا امبراطورية مترامية الاطراف لا يقل عدد سكانها المسلمين عن ثلاثين مليوناً ، فلا غرو ان هي عنيت بالشؤون الاسلامية . والعلاقات بين فرنسا والاسلام قديمة العهد اتسمت خلال العصور بطابع الصداقة والود المتبادل . والفرنسيون هم اول امة مسيحية قدرت عظمة الاسلام قدرها ونشئت صداقته . ففي عهد نابوليون الاول فتحت باريس عيون الغربيين على اهمية العالم الاسلامي ،

ولم تبخل هي عليه بنتاج العلوم والثقافة والفنون . وما فتئت حريصة على مبادلتها الخبير من الاشياء ، والازلي من القيم . وقد ساهمت فرنسا بعلمائها الاثريين ومؤرخيها ومهندسيها وبعثاتها العلمانية والتبشيرية وبرؤوس اموالها في النهضة الاسلامية وازدهار الاسلام . وظلت العلاقات صافية بينها وبينه حتى بعد هزيمتها في صيف ١٩٤٠ . ولم يتجهم الجو بينهما الا بسبب الانتداب الذي عهدت به عصبة الامم الى فرنسا على دولتي المشرق .

لقد كان الافضل لفرنسا ان تكتفي في سوريا ولبنان بالنفوذ السياسي تعززه الثقافة والاقتصاد بدلاً من ان تضع يدها على تركة الامبراطورية العثمانية المثقلة بالديون والمشاكل . اجل ، كان الافضل لها الاكتفاء بالعمل السياسي اللبق ، ولكنها لم تفعل مع الاسف ، فاخضعت دولتي المشرق لادارة مباشرة الى حد ما ، فترتب على هذه الخطوة تبخر نفوذها شيئاً فشيئاً . وسرعان ما اضطرت ، تحت ضغط عوامل داخلية واخرى خارجية ، للتغلي عن مركزها في المشرق .

حاولت فرنسا ان تطبق في سوريا ولبنان خططها الاستعمارية المتبعة في افريقيا لانها خلطت بين الاسلام وبين القضية الاستعمارية وحسبت الشعوب التي تدين بالاسلام في مستوى واحد من حيث التطور والاهلية . وقد قامت في الوطن الام حركتان متضادتان ترمي كلاهما الى حمل الدولة على لزوم موقف معين من الاسلام . فقادم احدهما جماعة العمل الكاثوليكي وخصوم العلمانية وفصل الدين عن الدولة وصبوا نقيمتهم على سياسة المهابة التي تنهجها فرنسا العلمانية حيال الدين الاسلامي ، وهي التي اقامت العراقل في طريق

الديانات الاخرى ولا سيما النصرانية .

القي لويس بوتران سنة ١٩٢٦ محاضرة في « المههد الكاثوليكي »
موضوعها « فرنسا والاسلام » فتساءل عن الحكمة من اثار الدولة
الدين الاسلامي على سائر الاديان . وقال ان فرنسا لا تكفي
باحترام شعائر الدين الحنيف ، فهي تماخذ الاسلام وتساهم في نشره
والتمكين له في ممتلكاتها ، وذلك بانفاقها على انشاء المساجد وترميم
المتداعي منها ، وباعطاء التشريع في هذه الممتلكات صبغة مستمدة من
القرآن .

وقاد الحركة الاخرى انصار العلمانية وخصوم الاكليروس ،
فاعتبروا الاسلام ديناً وشريعة وحضارة قائمة بذاتها ، تؤلف درجة
وسطى بين الحضارات البدائية وحضارة الغرب . وقد احتج هذا
الفريق لاكثر من مناسبة على مسح المؤسسات الاسلامية ، فكتب
المسيو لوشاتليه في « مجلة العالم الاسلامي » يقول : « اوجدنا في الجزائر
اسلاماً فريداً في بابه ، وانشأنا مساجد ادارية ، وجعلنا من القضاة
موظفين ، واخضعنا الحج للاجازة . وعمدنا الى الشرع الاسلامي فمسخنا
احكامه ووضعنا قانوناً جديداً حاولنا فيه ان نوفق بين احكام الشرع
وبين المبادئ التي تستند اليها القوانين الفرنسية ، فجاء عملنا مشوشاً . »
وكتب المسيو بوسكه يقول : « يمكن القول ان فرنسا لا تنهج
حيال الاسلام سياسة معينة . ومن المؤسف ان احكام الفرنسيين في
الاقطار الاسلامية يناصبون سكانها العداء ويعملون سراً ضد غو الاسلام
وانتشاره . اما الذين يلزمون موقفاً حيادياً فانهم يرتجلون سياستهم
ارتجالاً لان السلطات الرئيسية لم تقبدهم بخطة معينة . »

وقد ترجعت فرنسا بين النزعتين فكانت تحيى الاسلام تارة وتتنكر له تارة اخرى . وفي مستهل عهدها في الجزائر اتخذت من الضباط القدماء الذين اشتركوا في حملة مصر مستشارين للشؤون الاسلامية . وما لبثت ان استخدمت في المهام نفسها « ضباط المصالح المحلية » وحكام المقاطعات والقضاة الذين اكسبهم احتكاكهم بالسكان خبرة واسعة في الشؤون الاسلامية واتاح لهم الالمام باللغة العربية . وقد كان هذا الفريق من الموظفين صديقاً مخلصاً للمسلمين فساهم مساهمة فعالة في نشر الدين الحنيف بين القبائل الوثنية ، وهذا ما حمل المسيو مارتى على القول : « لقد نجحت ادارتنا في نشر الاسلام خلال نصف القرن الاخير نجاحاً لم يصب مثله المرابطون في غضون ثلاثئة عام . ففي المناطق التي كان العرف والعادة يقومان فيها مقام القانون نشرنا الشرع الاسلامي بواسطة القضاة والمفتين . وبفتحنا مئات المدارس القرآنية نشرنا تعاليم الدين الحنيف واللغة العربية في اوساط البربر . وبانشأتنا المعاهد الدينية ساهمنا في تخريج ائمة وعلماء يشار اليهم بالبنان . »

اخذت احزاب اليمين الفرنسية على المارشال ليوتي ذهابه بعيداً في تشجيع المؤسسات الاسلامية في المغرب . وحمل اليسارون في ربع القرن الاخير على تشجيع السلطات الفرنسية للفريق المحافظ من ابناء الجزائر وتونس ومراكش ، لان هذا التشجيع حال دون تطور المغرب تطوراً يتيح له مجاراة سائر الامم الاسلامية .

ولا يسع المؤرخ المنصف الا الاعتراف بان السياسة الفرنسية في المغرب لم تكن دائماً في مصلحة الاسلام . فشرائع « كرميو »

منعت يهود الجزائر حقوقاً لم تمنح المسلمين مثلها . وعندما ألغيت هذه الشرائع في عهد فيشي نكابة باليهود لم يمنح المسلمون شيئاً جديداً ، ولكنهم حرّموا مؤسساتهم الديمقراطية اسوة بالوطن الام (ألغيت فيشي مجلس الجزائر الاعلى واللجان الاقتصادية المحلية) . وقد اعيدت هذه المؤسسات بعد تحرير المغرب ، ووضعت لجنة التحرر مشروعاً يتيح لمسلمي الجزائر انتخاب ممثليهم في البرلمان الفرنسي ، واستوحت المخطوط الرئيسية من مشروع بلوم - فيوليت الذي وضعه رجلا الدولة الفرنسيان سنة ١٩٣٧ .

قضى مشروع بلوم - فيوليت بانشاء مجمع انتخابي موحد في الجزائر لجمع العناصر الوطنية وحصر حق الانتخاب بعشرين ألفاً يمثلون النخبة .

اما مشروع الحكومة الفرنسية الموقفة (حكومة ديغول) فقد وسع نطاق المجمع الانتخابي واتاح لجميع الموظفين وحملة الشهادات الابتدائية والثانوية ان يرسلوا ممثليهم الى البرلمان . وبمقتضى المشروع الجديد يصبح الناخبون رعايا فرنسيين ، ولكنهم يخضعون في الاحوال الشخصية للقانون المحلي (الشرع الاسلامي) .

وقد قامت في وجه المشروع اعتراضات ذات بال ، فقال فريق من الفرنسيين باستحالة التوفيق بين التشريع الفرنسي وبين تعاليم القرآن ، وحكموا سلفاً على التجربة بالاختفاق . واساء فريق من مسلمي الجزائر تأويل الخطوة الجديدة ، فزعم انها ترمي الى ارغام السكان على اعتناق الجنسية الفرنسية .

وبلوح ان السلطات الفرنسية مصممة على تحقيق اصلاحات جوهرية

في المغرب تتبع لسكانه المساهمة الفعلية في النشاط السياسي والاقتصادي دون ان يترتب على ذلك مساس بالاسلام كدين او كشرعية .
وقد درج الفرنسيون على محاربة الاسلام في مستعمراتهم الافريقية الاخرى ولاسيما افريقيا الغربية . فنفذ الحكماء خلال نصف قرن سياسة تشجيع التبشير بالدين الحنيف . ولم تغير السلطات الفرنسية خططها الا سنة ١٩١١ عندما اضطرت ، تحت ضغط العناصر الوثنية من جهة واحزاب اليمين الفرنسية من جهة اخرى ، لاقامة العراقيل المختلفة في طريق « المرابطين » الذين استهلوا الى الاسلام اربعين بالمئة من الزنوج .

واذا استثنينا هذه المداخلات التي تقتضيها في معظم الاحيان حالة الامن المحلية ، نلاحظ ان الادارة الفرنسية لا تقل عن الادارة البريطانية احتراماً لعقائد المسلمين وكرهاً للتدخل في شؤونهم الدينية .

سياسة البورد المتخففة

تختلف سياسة هولندا الاسلامية عن السياسة البريطانية والفرنسية اختلافاً بيناً لانها قائمة في الاساس على اخضاع الدين لاشراف الدولة الممثلة بحكام جزر الهند الهولندية ، وعلى مراقبة النزعات التي تنجاذب الحمديين وارشادهم عند الاقتضاء .

وقد عهدت السلطات الهولندية بهذه المهمة الى « مكتب الشؤون الوطنية » التابع لوزارتي المعارف والاديان . ويضم هذا المكتب موظفين درسوا الشؤون الشرقية دراسة وافية ، واستطاعوا ان يلموا بالتيارات الدينية والسياسية والثقافية التي تنجاذب السكان ، وبنشاط

الجالية العربية في الهند الهولندية .

ومن المهام الموكولة الى المكتب تتبع النزعات التحررية في العالم الاسلامي والاهتمام بشؤون الحج . وعليه ان يرفع الى الحكام تقارير دورية عن نشاط المسلمين في شتى الحقول ، وان يتقدم بمقترحاته الى دوائر الحكومة او الى الحكام العام مباشرة .

ويتعين على رئيس المكتب ، وهو في الغالب مستشرق واسع الاطلاع ، ان يتصل بالشخصيات السياسية والدينية والاندية الادبية ، وان يحضر الحفلات الاسلامية ممثلاً الحكومة ، فيتاح له بفضل هذا التماس ان يقف على امانى المحمدين ومطامحهم وان يتعرف الى مشاكلهم .

والجدير بالذكر ان اشراف السلطات الهولندية على الاسلام كدين وكشريعة لا يتعدى المراقبة والتوجيه اللبق بواسطة اصدقاء هولندا من المسلمين انفسهم . الا ان هذا التدخل غير المرئي لا يتناول العقائد الاسلامية نفسها ، فالهولنديون اعقل من ان يدخلوا انوفهم في قضية حساسة كالقضية العقائدية . ولكنهم شديدو الحرص على تتبع التيارات الفكرية والروحية في منطقة تدين لهم بالطاعة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً .

والسياسة الهولندية في الهند الهولندية ليست كلها بين ايدي المستشرقين من رجال « مكتب الشؤون الوطنية » ، ففي الحكومة الهولندية دائرة خاصة ملهقة بوزارة المستعمرات تراقب باستمرار تنفيذ سياسة الحكومة في الممتلكات حتى اذا خرج المنفذون عن السياق المرسوم نيهتهم الى هذا الخروج . ذلك بان الهولنديين لا يرتجلون موافقهم من الاسلام ارتجالاً ، فلهم في هذا الحقل سياسة

موسومة ولكنها مرفقة ، يمكن تعديلها تبعاً لظروف الزمان والمكان .

سياسة إيطاليا

خسرت إيطاليا في الحرب العالمية الثانية امبراطورية يربى عدد رعاياها المسلمين على سبعة ملايين . وقد كانت تطمح الى حصة كبيرة في افريقيا الشمالية والشرقية . الا انها وجدت فرنسا وبريطانيا قد سبقتهما ووضعتا ايديهما على الشطر الاكبر من القنينة .

عمد الايطاليون الى محاربة النفوذ الفرنسي والانكليزي في العالم الاسلامي بدعائيات شتى . فزعموا انهم خير من يستعمر الامصار واقدر من سواهم على حماية الاسلام وتشجيع رسالته . ألم يصرح الوزير الايطالي دي سان جيولانو في ٤ نيسان ١٨٨٤ : « الاسلام هو حليفنا الطبيعي في نضالنا من اجل الدفاع عن الحرية في البحر الابيض المتوسط » ؟

ولا يسع المؤرخ المنصف الا ان يذكر لايطاليا الحرية تساهلها مع رعاياها المسلمين . من ذلك انها تخلت حتى ٢٢ آب ١٩١٥ عن حقتي تعيين القضاة في ليبيا لشيخ الاسلام العثماني ، وسمحت للخليفة بان يعين في ليبيا نائباً له مهمته الاشراف على المصالح الدينية . وفي العام ١٩١٩ منعت رعايا القبروان وطرابلس الغرب الجنسية الايطالية لما وراء البحار مع احتفاظهم بالرعية المحلية ودون ان يتوب على ذلك مساس بقانون الاحوال الشخصية . وقد كفلت الجنسية لما وراء البحار للذين اجرزوها الميزات التالية : صون حرمة المنزل وحماية الملكية الفردية ، حق الوطنيين بشغل المنصب المرموقة

في الحكومة ، حق الانتخاب والارشاح للمجالس المحلية ، حرية الصحافة . ونصت المادة ٣٣ من « الستاتوكو » (النظام القائم) على ان الجنسية الإيطالية لما وراء البحار يمكن ان تتحول الى جنسية ايطالية كاملة ضمن شروط معينة .

الا ان سياسة التسامح هذه أوت في ليبيا تأويلاً خاطئاً ، فحسبها السنوسيون دليل ضعيف ، واصلوا الثورة . وقد اضطرت ايطاليا سنة ١٩٢٠ الاعتراف بمادة السنوسي وبمنهجها الاستقلال الذاتي . وشجعت هذه التنازلات الاقوام الليبية الاخرى على العصيان . وكاد الزمام يفلت من يد روما عند وصول الفاشيست الى الحكم .

عمد موسوليني الى استمالة الليبيين بالاقناع ، ولكن الادارة الفاشيستية لم تنجح في استمالة السكان ، فما كان من الدكتاتور الا ان لجأ الى الشدة القصوى ، فاسترد الاقاليم المستقلة وشرد الزعماء الطوال العمر بعد ان اعدم الفريق المتطرف منهم . وفي العام ١٩٢٨ الفى « الستاتوكو » وناط بالجنرال بادوليو (المارشال اليوم) ادارة المستعمرة ، فاذاع الجنرال البيان التالي :

« لن يكون سلام ما دام في البلاد متمرّد واحد . لقد قررت ملاحقة الخارجين على القانون بالشدة القصوى ، ولن اتردد في ايذاءهم بنفوسهم وعيالهم ومواشيهم . سأقضي على كل شيء يخصهم . » ثم عهد موسوليني الى الجنرال غرازياني (المارشال اليوم) بمهمة تطهير المستعمرة ، فابعد سكان القيروان عن المناطق الساحلية ، وارغم ثمانين ألفاً منهم على الاقامة في الصحراء داخل معسكرات مسورة بالاسلاك الشائكة . ولم يتردد غرازياني في نصب المشائق ، ونسب اليه القاء

بعض الزعماء من الطائرات .

وعلى اثر هذه التدابير البربرية لجأ مئتا الف لبي الى تونس
ومراكش ومصر وآسيا الصغرى . ونقص عدد سكان طرابلس
والقيروان ٢٥ بالمئة ، بينما اثبتت الاحصاءات زيادة سنوية في عدد
سكان مراكش وتونس والجزائر لا تقل عن نصف مليون .

ادت سيااسة الفاشيست حيال مسلمي ليبيا الى القضاء على سمعة
ايطاليا في دنيا الاسلام ، في وقت كان موسوليني يطمح الى الحول
محل فرنسا وانكلترا في افريقيا والشرق العربي . وهذا ما حمل
الدكتاتور على اعادة النظر في سياسته الاسلامية ، فعين صديقه
المارشال بالبو حاكماً لليبيا وزوده بصلاحيات واسعة .

وصل بالبو الى طرابلس الغرب في كانون الاول ١٩٤٣ واستهل
عهده بالسماح لسكان ساحل القيروان بالعودة اليه ، وباصدار بيان
يدعو فيه الذين غادروا البلاد للعودة اليها . ثم امر بفتح المساجد
والمدارس القرآنية (وكان بادوليو وغرازياني قد اقفلاها) وعهد
بإدارة الاوقاف الاسلامية الى المسلمين بعد ان كانت خاضعة لاشراف
موظف ايطالي .

وفي العام التالي جعل تعليم اللغة العربية اجبارياً وارصد مبالغ
كبيرة لانشاء مساجد جديدة ومدرسة اسلامية عالية في طرابلس
الغرب . ولم يكتف بالبو بالاصلاح الاجتماعي ، فقد اصدر عفواً عاماً
عن المعتقلين السياسيين ، وامر بوقف الملاحقات والمحاكمات ، واعاد
فريقاً من الولاة الوطنيين الذين عزلهم سلفه الى مناصبهم .

وفي الوقت نفسه كانت الدبلوماسية ايطالية تجاري المسلمين في

الساح الدولي الفسيح . فوقف مندوبو إيطاليا في عصبة الأمم بجانب العراق ضد بريطانيا ، وكانوا مع سوريا ضد فرنسا . وانتشرت إيطاليا للعرب الفلسطينيين ضد الصهيونية ، وكان رسلها في القاهرة وبغروت ودمشق ، وجده وبغداد وفي أفريقيا الشمالية الفرنسية والإسبانية يقدمون إلى المشتغلين بالقضايا الوطنية الأدلة على اهتمام موسوليني بالعالم الإسلامي وعلى ما تضرره إيطاليا الفاشيستية للمسلمين من خير . وقد استخدمت إيطاليا في الدعاية ضد فرنسا وبريطانيا الصحافة والراديو وبعض الزعماء العرب الناقمين على الدولتين الاستعماريتين . وبعد احتلالها الحبشة ١٩٣٥ عمدت إلى تعزيز الأقلية الإسلامية فيها ، فتأثر العالم الإسلامي بهذه المبادرة ، وخيل إليه أن موسوليني جاد في التقرب من المسلمين . وعندما صرح الدكتاتور في طرابلس الغرب بأنه « حامي الإسلام » لم يثر ادعاؤه هذا إلا احتجاجات ضعيفة في الأوساط الإسلامية .

وكانت البانيا ، الدولة الإسلامية الوحيدة في أوروبا ، تخضع لأشراف إيطاليا إلى حد ما ، فزادتها سياسة موسوليني حيال الإسلام تعلقاً بمحاميته الفاشيستية . إلا أن هذا الخضوع لم ينجها من الوقوع فريسة العدوان الإيطالي في السابع من نيسان ١٩٣٩ . فكان لهذا العدوان صده في العالم الإسلامي . وانتهر الفرنسيون والانكليز الفرصة فعمدوا إلى إزالة آثار الدعاية الفاشيستية في ممتلكاتهم والاقطار الخاضعة لنفوذهم . بيد أن جهودهم لم تصب النجاح المنشود نظراً لتورط الدولتين في قضيتي فلسطين والاسكندرون . وقد نسي العالم الإسلامي ، ولاسيما البلدان الواقعة في حوض

البحر المتوسط ، مواقف ايطاليا غير الودية ابان الحرب العالمية الثانية ، وكاد ينحاز الى جانبها نهائياً لو لم تتكشف الدولة الفاشستية عن عملاق هزيل في ميادين القتال ، وتنهار تلك الاسطورة التي جعلت من موسوليني في وقت ما باعث امجاد روما .

وبانهيار ايطاليا كدولة عظمى في القارة الاوروبية زالت امبراطوريتها الافريقية من الوجود . الا ان ممتلكاتها ما وراء البحار ستظل مطبوعة بالطابع الايطالي مدة طويلة . وربما ذكر الطرابلسيون والبرقاويون وابناء الصومال والاريترة لايطاليا يدها البيضاء عليهم في الحقول العمرانية ، فهي قد حققت بموارد المستعمرات الضئيلة منهاجاً انشائياً واسعاً مهر تلك البلدان المتأخرة بالطرق والموانئ والمطارات ومحطات توليد الكهرباء . وعملت في الوقت نفسه على رفع مستوى السكان اجتماعياً وثقافياً .

سياسة اسبانيا

لا تختلف نظرة اسباني القرن العشرين الى الاسلام عن نظرة الصليبيين اليه . فالسياسة الاسبانية حيال المسلمين مشبعة بالبغضاء والحقد لان دين التوحيد اذل اسبانيا في وقت ما وطبعها بطابعه حقبة طويلة من الزمن .

تسيطر اسبانيا على شمال مراکش . ويبلغ عدد رعاياها المسلمين هناك ستمئة الف . وقد حاولت الحكومات التي تعاقبت منذ ١٩٢٤ ان تستميل المراكشيين بالحسنى وتضع حداً لثوراتهم ، ناسجة على منوال الحكومة الفرنسية التي قضت على بواث التدمير والاضطراب

في منطقتها المراكشية بسياسة التمييز والانشاء . وبعد سقوط الملكية مدت الجمهورية يدها الى المراكشيين داعية اياهم الى التماوت واياها على اساس المساواة في الحقوق والواجبات .

وعند نشوب الحرب الاهلية الاسبانية خيل للوطنيين في شمال مراكش ان ساعة التحرر قد دقت . ولم يفت الجنرال فرنكو من جهة والحكومة الجمهورية من جهة اخرى ما يحول في رؤوس المراكشيين ، فعمد كل منهما لاستمالة الجمعية الى جانبه ، باذلاً لها شتى الوعود . وقد كان فرنكو اشد اسرافاً من حكومة مدريد ، فوعد مسلمي مراكش باعادة مسجد اشيلية اليهم ، واكد لهم ان وطنهم سينعم بعد انتهاء الحرب الاهلية بالاستقلال الذاتي ويكون له ممثلون في حكومة مدريد ومجلسها التشريعي .

ايد المراكشيون حركة فرنكو ، وابلوا بلاء حسناً في الحرب الاهلية ، ولكن الحكومة الفرنسية تناست معظم وعودها ، واكتفت باعادة الارض الموات في مراكش الى مالكيها المسلمين بعد ان احدثت وزارة للاوقاف وعهدت بشؤونها الى عبد القادر تورييس ، الزعيم المراكشي المعروف .

وخيل لفرنكو ان هذين التديرين وسياسة التساهل حيال الوطنيين المتطرفين التي امر المندوب السامي الاسباني باتباعها في تطوان قيمة بقطع الطريق على الدسائس الاجنبية في مراكش وبلجهم النزوات المتطرفة . وقد سمى الجنرال « بيكدير » الذي عين مندوباً سامياً ١٩٣٧ هذه السياسة « ترويض الوطنية المتطرفة » ودافع عنها بقوله « ان محاولة كبت الشعور الوطني تؤدي دائماً الى تقوية هذا الشعور .

أما سياسة ترويض الوطنية المتطرفة التي اتبعتها أنا في تطوان فقد جعلت مني معلم اعتراف الزعماء الوطنيين ومستشارهم المسموع الكلمة . وتقضي خطتي حبال هؤلاء بالحبس عليهم في نطاق يضم مطامعهم بحيث لا يتجاوزون حدود حضارتهم الخاصة .

بيد ان هذا « التكتيك » لم يوت ثماره المرجوة ، وقد رأينا الزعماء الوطنيين الذين عمل الاسبانيون على ترويضهم يتآمرون مع بعض الدول الاجنبية ضد اسبانيا الفرنكية ، وكان عبد القادر تويس صديق فرنكر المدلل في طليعة المحرضين على الثورة ، النافخين في بوقها . وقد خلق المعارضون هذا الجو في وقت كانت مدريد تتعجزر لعطن فرنسا في الظهر والانقضاء على مراکش الفرنسية (١٩٤٢) ، فشغلتها الاضطرابات في المنطقة الخاضعة لها عن تنفيذ خططها التوسعية . وما وضعت الحرب اوزارها حتى بدل فرنكو لهجته وطاب له التغني بالاخوة الاسبانية - الاسلامية ، في خطبه وتصريحاته وبياناته ، ودال على رغبته في التقرب من المسلمين بتشجيعه المثقفين من ابناء اسبانيا على درس اللغة العربية ، وبادخال اللغة العربية مادة اساسية في منهاج معهد الآداب العالي . وانشأ في تطوان معهداً للعلوم الشرقية وآخر للشرع الاسلامي . والتفت الاسبانيون خلال السنوات العشر الاخيرة اكثر من التفاتة الى الوراثة لانهم اكتشفوا ، بعد فوات الاوان ، اهمية الحضارة الاسلامية التي خلفها العرب في قرطبة واشبيلية وغرناطة . وفي عهد الجنرال فرنكو نشطت دار الآثار لاستجلاء كنوز الفن الاندلسي والتقيب عن الدفين منها . وتبارى الاثرياء في تشييد القصور ذات الطراز السريبي . وارصدت الحكومة الملايين لترميم المباني الاثرية

التي امتدت اليها الايدي بالعبث بعد خروج العرب من اندلسهم ولم يشفع بما بقي منها الا كونها لازمة لمصالح الدولة او ارباب النفوذ .

تعتبر صحيفة « موندو » التي تصدر في مدريد من اوسع المجالات الاوروبية اطلاعاً على الشؤون الاسلامية . وقد نوهت « موندو » اخيراً ، في فصول متتالية ، بالروابط التي قامت في الماضي والتي تقوم الآن بين العالمين الاسلامي والاسباني (يقصد بالعالم الاسباني : اسبانيا والبرتغال ودول اميركا اللاتينية) . وما قالته الصحيفة في هذا الصدد ما ننقله بالحرف :

« ان اسبانيا الجديدة هي الامة الوحيدة التي تفهم الاسلام وتقدر رسالته وتستطيع ان تتفاهم وايامه . ذلك بان الاسلام جسر قائم بين الاجناس والقارات ، وليست اسبانيا الا قنطرة قائمة بين اوروبا وافريقيا واميركا . ولا ننسى ان اشهر المفكرين المسلمين وفي طليعتهم ابن العربي ابصروا النور في اسبانيا . »

وتستطرد للصحيفة الاسبانية :

« ويبدو ان العرب المقيمين في اميركا اللاتينية ، ويربي عددهم على الملايون ، مقتنعون بانهم والاسبانيين من عنصر واحد . ويتسم انشاء الادباء العرب في البرازيل والارجنتين والمكسيك بطابع اندلسي صريح . »

وتأبى « موندو » الا توسيع نطاق مياسة اسبانيا الاسلامية ، فتعلم بقيام تعاوت اوثق بين الشعوب العربية والشعوب الناطقة بالاسبانية . فـ « بين العالم الاسباني والعالم العربي شبه عظيم . وكما

تؤلف وحدة الشعوب الناطقة بالاسبانية قومية عليا مرتكزة على الطابع واللغة والثقافة المشتركة ، كذلك تؤلف وحدة العالم العربي قومية ترتكز على العوامل نفسها . وبفضل وحدة الطابع واللغة والثقافة تؤلف الشعوب الاسبانية امبراطورية روحية ، وتعمل الشعوب الناطقة بالضاد على بئس الامبراطورية العربية . »

انتهى كلام المجلة الاسبانية . والجدير بالذكر ان فريقاً من المفكرين العرب المقيمين في اميركا يذهبون مذهبها ويعتقدون ان ثمة انسجاماً كبيراً بين القوميتين العربية والاسبانية . وقد ذهب احدهم الدكتور حبيب اسطفان الى ابعد من ذلك فزعم ان الامتين شقيقتان وان اسبانيا هي الوطن الام لكلاهما . ففيها بلغت اللغة والفنون العربية شأواً لم تبلغه في اي بلد عربي .

على ان اصداه هذه الاصوات لا تتجاوب في العالم العربي ، ويمكن القول ان حظ اسبانيا من عطف المسلمين كان وما يزال ضئيلاً .

سياسة ألمانيا

للدول التي عرضنا لسياساتها حيال الاسلام ، في الفصول المتقدمة ، رعايا محمديون . وقد كانت ألمانيا دولة استعمارية ولكن عدد المسلمين في امبراطوريتها ما كان ليقترضها اعتماد سياسة معينة حيال الاسلام . ومع هذا فقد امتدت اليه في سياستها الاستعمارية وكانت محابة للمحمديين الطابع المميز لادارتها في الممتلكات ذات الاكثوية الوثنية . ذلك بان ألمانيا كانت تطمح الى منافسة فرنسا وانكلترا في دنيا الاسلام . ففي العام ١٨٩٨ صرح الامبراطور غليوم الثاني في دمشق

بأنه « حامي المسلمين وصديقهم » . وقد دلت زيارة الامبراطور لطنجه وظهور دارعة المانية في اغادير ١٩١١ ، ومشروع الخط الحديدي برلين - بغداد ، على مدى المطامع الالمانية في دنيا الاسلام . الا ان اخفاق خطط برلين في مراكش وايران اضطررها لصرف النظر مؤقتاً عن مشاريعها التوسعية ، فعمدت الى محالفة السلطنة العثمانية رغبة منها في التقرب من الاسلام واستخدامه في محاربة خصومها .

وفي العام ١٩١٤ طلب غليوم الثاني من شيخ الاسلام دعوة المؤمنين الى الجهاد ، فارتكب بذلك غلطة بسيكولوجية فادحة ، لان الجهاد لا يعلن الا ضد الكفار فكيف يقاتل المسلمون اخوانهم ابناء مراكش وتونس والجزائر والسودان الخ... المنخرطين في الجيوش الحليفة ؟

استغل عملاء بريطانيا في البلاد الاسلامية ، غير العثمانية ، هذه الغلطة وحرضوا السكان على الثورة . فانقلب الجهاد في البلاد العربية ضد الذين دعوا اليه . وحاول الالمان اثارة الهند ومراكش ولكن محاولاتهم منيت بالاخفاق .

وقد ادت هزيمة المانيا ١٩١٨ الى وقف جهودها في دنيا الاسلام بضع سنوات . الا ان رسل برلين ودعاتها ظلوا في مراكشهم وابقوا على الصداقات التي انشأوها قبل الهزيمة ، حتى اذا ظهر الحزب الوطني الاشتراكي بالحكم وجد في متناوله منهاجاً كاملاً للعمل السياسي في الاقطار الاسلامية ، لا يعوزهم الا للتنسيق ووسائل الدعاية الحديثة .

ومنذ ١٩٣٣ شرع هتلر يتوحد الى المسلمين ، مدخلاً في روعهم

ان الريخ الثالث لن يثار لنفسه فحسب ، بل سيثار للشعوب التي جعلتها فرنسا وانكلترا مطايا لها . على ان تظاهر هتار بالعطف على الاسلام لم يقف عند حد التصريحات والخطب والبيانات . فقد تطوع علماء الريخ الثالث وشخصياته الدبلوماسية والعسكرية وبعثاته الاثرية وبيوته التجارية في الخارج لاقتناع المسلمين بان المانيا هي الدولة الاوروبية الوحيدة التي تستطيع تحريرهم وتحقيق مطالبهم القومية .

ومنذ ١٩٣٨ قام تعاون وثيق بين عملاء برلين وروما في الشرق العربي . وانشأت الدولتان مركزاً رئيسياً للدعاية في القاهرة ومراكز ثانوية في جده وصنعاء ودمشق . وكان قنصل الريخ الثالث وايطاليا الفاشستية يتصرفون بمبالغ طائلة ، ويعملون ليل نهار في سبيل تقوية المعارضة للسلطات الفرنسية والبريطانية في البلدان الخاضعة لنفوذ الدولتين .

وشجع الالمان على قيام منظمات واحزاب في معظم البلدان الاسلامية والشرقية على غرار الحزب الوطني الاشتراكي والشباب الهتلري . فظهرت في مصر وسوريا والهند والعراق منظمات القمصان الحمراء والخضراء والزرقاء . وحرص عملاء برلين في الوقت نفسه على تعريب انجيل هتار « كفاحي » بعد ان شطبوا منه الفقرات التي تجعل من العرب عنصراً منحطاً .

وبعد هزيمة فرنسا ضاعف الالمان نشاطهم في دنيا الاسلام ، فانشأوا مركزين جديدين للدعاية احدهما في باريس والاخر في اثينا . ونبط بمركز باريس التمهيد لاحلال السيطرة الالمانية محل السيطرة

الفرنسية في المغرب . اما مركز اثينا فقد كان الفرض من انشائه
تعزيز مراكز الدعاية في الشرق الاوسط باذاعات عربية من المحطة
اليونانية .

ولم يكتف الالمان ببث دعايتهم في الديار الاسلامية ، فقد فتحوا
ابواب بلادهم لاستقبال اللاجئين السياسيين من اعداء فرنسا
وانكاثروا ، وعملوا قبل نشوب الحرب على اجتذاب طلاب العلم من
الاقطار العربية والاسيوية ، وارصدوا المبالغ الضائلة لتعزيز العلوم
الشرقية في جامعتي برلين وفيينا ، وعهدوا الى اشهر المستشرقين بتأليف
جمعيات المانية اسلامية تضم الزعماء والطلاب المحمدين واصدقاء
الاسلام من الساسة والقادة والعلماء في الربيع الثالث .

وفي اثناء الحرب شجعت الحكومة الالمانية على قيام جمعيات
اسلامية ذات طابع سيامي . (لجنة الدفاع عن المغرب . اتحاد
المسلمين . العرب الاحرار . لجأت التحرر القفقاسية والاذربيجانية
والتركمانية) . وعمدت السلطات النازية بعد سقوط فرنسا الى وضع
اسرى الحرب المغاربة في معسكرات خاصة حيث تولى اخصائون
في التخريب والدعاية والجاسوسية تدريبهم على هذه الاعمال حتى اذا
اتقنوها اطلقت برلين سراهم وارسلتهم الى افريقيا الشمالية ليعملوا
فيها ضد فرنسا . الا ان جهود الالمان لم تؤت ثمارها فقد احبط خططهم
في المغرب نزول الحلفاء على الشاطئ الافريقي وتقلص ظل فيشي
عن تلك الديار .

وبعد تحرير افريقيا الشمالية الفرنسية قامت في باريس ، بتشجيع من
السلطات الالمانية ، « لجنة مسلمي شمال افريقيا » واصدرت مجلة « الرشيد »

بالاتفاق مع الزعيم التونسي حبيب بو رقيب وهو من الد اعداء فرنسا في المغرب . وقد وضعت اللجنة نصب عينها تحقيق الاهداف التالية :

- ١ - وحدة الاقطار المغربية الثلاثة على اساس اللامركزية .
- ٢ - المساواة التامة بين سكان تونس والجزائر ومراكش .
- ٣ - حصر الوظائف بالوطنيين .
- ٤ - انشاء جيش وطني في شمالي افريقيا يكون قاداته من المسلمين

٥ - جعل التعليم اجبارياً وتعزيز اللغة العربية .

٦ - طرد اليهود والخنونة .

٧ - الغاء الشركات الاحتكارية .

ولما لم يقابل هذا المنهاج بالحماسة المرجوة في الاوساط المغربية ضاعف الالمان الاهتمام بأسرى الحرب من الافريقيين ، فأنشأوا في جنوب فرنسا فرقة كاملة من الرماة الصباحيين توطئة لارسال حملة من المغربيين الى الجبهة الشرقية حيث تعمل جنباً الى جنب العناصر التركمانية والاذرييجانية « التي تطوعت لانقاذ الاسلام المهدد بالخطر البولشفي » على حد قول الدكتور غوبلز .

الا ان تطور الحوادث حال دون ارسال الجنود المغربيين الى الجبهة الشرقية ، كما حال دون استخدامهم في المعارك التي دارت رحاها في الغرب بعد نزول الحلفاء في فرنسا .

وكان اخفاق الثورة العراقية بقيادة رشيد عالي الكيلاني قد اضطر فريقاً من زعماء الاسلام في الشرق العربي للجهو الى المانيا وايطاليا ، فانبرت الدعابة الالمانية تمجد جهاد الحاج امين الحسيني

مفتي فلسطين الأكبر ونحبي في شخصه هـ الزعيم المسلم الذي لا يرقى شك الى وطنيته واخلاصه والذي يعلق عليه العرب اطيب الآمال .» وذهب بعض الصحف الالمانية والايطالية الى ابعد من ذلك فرشح المفتي للخلافة ، وطلق يتحدث عن اتفاق شفوي عقد بين سماعته وبين حكومتي برلين وروما تتعهد فيه الحكومتان بمساعدة العرب على التحرر . وقد زعمت جريدة فرنكفورت تسايتونج ان برلين اكدت للاقطاب العرب الاجئين اليها انها تعتبر نفسها صديقة للعالم الاسلامي وتوغب رغبة صادقة في التعاون واياه على اساس تبادل المنافع .

وكتب « رودولف كيرخر » المحرر السياسي في الجريدة نفسها يقول : « نحن مقتنعون بان الشعوب الاسلامية امة راضدة يمكنها ان تدبر شؤونها بنفسها ، وانها لفي غنى عن ارشاد الفرنسيين والانكليز الذين ليسوا في الحقيقة سوى مستعمرين سيئتي النية .» والممانيا الوطنية الاشتراكية لا تشجع الحركات الاستقلالية في دنيا الاسلام فحسب ، فهي تتبع بعطف حركة الوحدة العربية وتوجو مخلصه ان يوفق العرب الى تحقيق هذه الوحدة .»

الا ان مقالات « كولان روس » الكاتب الالماني المتصل بوزارة الخارجية لم تكن طافحة بمثل هذه العواطف المجردة . فقد ضرب روس على وتر القومية العربية وقال بوجود تحرير العالم الاسلامي من ربقة العبودية والاستعمار . الا انه اقترح تنظيم « مدى حبوي اسلامي تحت اشراف اخصائين من الالمان » ، وجعل هذا المدى تابعاً لمنطقة النفوذ الالمانية عسكرياً واقتصادياً .

ومها يكن من خفايا السياسة الألمانية حيال الاسلام ، فلا مجال لانكار النجاح الذي اصابه الريخ الثالث في محاولته الرامية الى كسب صداقة المسلمين . فقد كانت برلين في الحرب نقطة التقاء الزعماء الناقمين على الاستعمارين البريطانيين والفرنسي ، ومركز الحركات الثورية والتحررية ، وحركة الوحدة العربية ، وحركة التحرر الاسلامي ، والكفاح ضد الشيوعية والصهيونية الخ ...

اما وقد غلبت المانيا على امرها فسيامتها حيال الاسلام تهجم في الوقت الحاضر هجمة عميقة ، ولكن ما حدث عقيب الحرب العالمية الاولى قد يحدث غداً ، فيخفي الالمان خططهم ويكتُموا وسائلهم بانتظار الوقت المناسب حتى اذا حان هذا الوقت استأنفوا نشاطهم في العالم الاسلامي الذي اوشك في وقت ما ان ينخدع بدعائهم .

سياسة اليابان

ضاعفت الحرب العالمية الثانية اهتمام الدول العظمى بالمسألة الاسلامية ، وكان في جملة نتائجها المباشرة ظهور امبرطورية اسلامية جديدة انشأها اليابانيون بقوة السلاح .

لم تول اليابان المسائل الاسلامية عناية كبيرة قبل نشوب الحرب ولكنها اظهرت نشاطاً كبيراً حيال المسلمين من رعايا الميكادو وهم يتجمعون في العاصمة طوكيو ولا يربي عددهم على الالف . وقد سمحت لهم الحكومة منذ ١٩٢٣ بإنشاء مدرسة خيرية . وفي العام ١٩٣٨ انشأوا مسجداً في طوكيو وآخر في « كوبيه » .

بدأ اهتمام اليابان بالاسلام ابان الحرب الصينية اليابانية ١٨٧٥ .
فقد لاحظ القادة اليابانيون ان الصين تواجه قواتهم بفيالق مساة
شديدة المراس ، فقرروا منذ ذاك العمل على استمالة المسلمين الصينيين .
وفي العام ١٩٢٦ ثار مسلمو كانسيو بتعريض من عملاء طوكيو .
وبعد اربعة اعوام انشأ اليابانيون « عصبة اسلامية صينية » على رأسها
خمسة من قادة القوات المسلمة في الصين . وقد وضعت العصبة نصب
عينها تحقيق اغراض ثلاثة هي : ١ - تحرير مسلمي الصين من سيطرة
الاكثرية ، ٢ - انشاء مملكة مسلمة مستقلة ، ٣ - مكافحة الشيوعية
في الصين .

وفي العام ١٩٣٨ شجع اليابانيون الحركة الانفصالية التي قام
بها الزعيم المسلم « ما نشويان » في « قاشكار » و « اكسو » ، واعانوه في
انشاء جمهورية في القسم الغربي من تركستان وفي نيته ان
يستخدموا الدولة الجديدة في تهديد المواصلات بين روسيا والصين .
ولم تكتف اليابان بهذه الخطوة ، فقد سعت الى تشجيع الحركات
الانفصالية في المناطق الروسية التي يدين سكانها بالاسلام ، ملوحنة
لمسلمي الصين وروسيا بإمكان قيام امبراطورية طورانية تمتد من باكو
الى اراموتشي .

وسرعان ما تجاوز نشاط اليابانيين الشرق الاقصى ، فولوا وجوههم
شطر آسيا الوسطى والشرق الاوسط وانشأوا علاقات ودية مع
ايران والعراق والمملكة العربية السعودية واليمن والافغان وتركيا .
وامتطاعوا بفضل نشاطهم التجاري الحارق ان يزاحموا البضائع
الانكليزية والفرنسية والالمانية في اسواق هذه البلدان . وقبل

نشوب الحرب العالمية الثانية بأشهر معدودة عقدت اليابان اتفاقات تجارية مع العراق وإيران. وأرسلت إلى الأفغان بعثة عسكرية لتتولى تدريب الجيش الأفغاني. وفي العام ١٩٤١ أوفدت حكومة كابول بعثة تجارية إلى طوكيو. وبعد أشهر وصلت إلى الأفغان بعثة من المهندسين اليابانيين لتشرف على بناء طرق استراتيجية. وبعد نشوب الحرب في الشرق الأقصى والباسفيك عقد سفراء اليابان في الشرق الأوسط مؤتمراً خطيراً في كابول. وشاع على الأثر أن الأفغان تلقت وعداً باعطائهم منفذاً إلى البحر في حال خروج اليابان من الحرب ظافرة.

واستخدمت اليابان سلاح الدهاية في استمالة العالم الإسلامي. فزعمت أنها الدولة الوحيدة التي تستطيع حماية الإسلام. وعهد عملاؤها إلى التفرير بالبسطاء من الناس زاعمين أن اليابانيين شعب مسلم وأن الميكادو يصلي الجمعة في مسجد طوكيو. أما المثقفون فقد أدخل العملاء في روعهم أن اليابان قررت اعتناق الإسلام، ولكن اللعبة لم تنطل على كثيرين بالرغم من مهارة الدعاة.

وفي هذه الأثناء كانت طوكيو توغز إلى المستشرقين وامانة الجامعات بالتوفر على دروس الشؤون الإسلامية. وأمرت بمثلها في منشوريا بالاكثار من تشييد المساجد، فبلغ عددها سنة ١٩٤٢ خمسة مسجد بنيت كلها على نفقة حكومة الميكادو.

إلا أن هذه المحاولات في سبيل التقرب من الإسلام لم تؤت ثمارها المرجوة لأن العدوان الياباني في الصين وضع اليابان في مصف الدول الاستعمارية التي يتعامل المساهون للتعرر من سيطرتها ويتبرمون بنيرها

الثقل . ولم تبدل نظرة الرأي العام الاسلامي في الدولة اليابانية حتى بعد انتصاراتها الاولى في الشرق الاقصى والباسفيك لان السلطات العسكرية في جزر الهند الهولندية وبورما وبلاد الملايو لم تنفذ وعداً واحداً من الوعود التي بذلتها حكومة الميكادو للسكان، فبدلاً من ان تعزز الاسلام في البقاع المحتلة ارغمت اعضاء المجالس التمثيلية فيها على الانحناء امام صور الميكادو ، وهي التي لم تتعود السجود الا للعبة الالهية .

يضاف الى هذا ان القادة اليابانيين الذين تولوا ادارة شؤون الهند الهولندية برهنوا عن قصر نظر في معاملة المسلمين ، فلم يوعوا لتقاليدهم حرمة ، ولم يتورعوا عن ارغام الائمة والمشايخ على حمل السلاح .

سياسة الولايات المتحدة

لئن يكن اسلام الشرق الاقصى قد اوشك ان يخضع للسيطرة اليابانية ، فاسلام الشرق الاوسط ينتقل تدريجاً من دائرة النفوذ البريطاني الى دائرة النفوذ الاميركي .

يقول كاتب الماني ان سياسة الولايات المتحدة حيال الاسلام « تتبع منها رائحة البترول » . ذلك بان هذه السياسة ترسم خطوطها في معظم الاحيان شركات النفط في بلاد الدولار . ولولا النفط لظل اهتمام الاميركيين عادياً بدنيا الاسلام .

ففي اواخر تشرين الثاني ١٩٤٣ خطب المستر هارولد ايكس وزير الداخلية في الحكومة الاميركية عامثد ومدير احدى شركات النفط ، فوضع ان مركز امبراطورية النفط اخذ بالتحول وربما انتقل

الى الشرق الاوسط حيث ~~تكثر~~ اللينابيع في اقطار غير مستقرة
لاستثمار هذا الذهب الاسود ، فهناك آبار العراق والحبشة ويران
والبحرين والافغان .

واستطرد هارولد ايكس يقول :

« لقد استنفدت الحرب بترولنا او نكاد . فمنه نقدم لحلفائنا ٩٥
بالمئة من بنزين الطائرات الذي يحتاجون اليه . ولن يمضي خمسة عشر
عاماً حتى ينفد احتياط البترول الذي لدينا . وقد جف معظم
آبارنا . فعلينا اذاً ان نكون متأهبين لاثبات وجودنا حيثما وجد بترول .»
وقد سبق للشركات الاميركية ان تثبت وجودها حيثما وجد
بترول لمحاولة الظفر بحصة الاسد . ففي العام ١٩٢٥ تذرعت الولايات
المتحدة هند وضع عهدة سانت ريمو بمبدأ الباب المفتوح ونالت ٧٥
بالمئة من اسهم شركة البترول العراقية .

ومن ثم نشط الخبراء الاميركيون للتنقيب عن البترول في
الشرق الاوسط فاتضح لهم ان هذه المنطقة غنية جداً بالذهب
الاسود . وفي العام ١٩٣١ نالت شركة ستندرد اويل (كاليفورنيا)
امتيازاً في البحرين واستنبطت من ارضها منابع غزيرة ، مع ان
المهندسين الانكليز لم يوفقوا الى العثور على شيء . وبعد عشر سنين
شمل الامتياز الاميركي جزر البحرين كلها وساهم في استنباط النفط
عدة شركات اميركية .

وتطلع الاميركيون الى اراضي المملكة العربية السعودية ،
فمقدوا مع عاهلها سنة ١٩٣٣ عدة اتفاقات بترولية . وبعد ست
سنوات تقاضاهم الملك مليوناً ومئة وخمسين الف دولار لقاء منحهم

امتيازاً بالتنقيب عن البترول في منطقة مساحتها تسعون ألف ميل مربع . وما لبث ان اجاز لشركة ستاندرد اويل التنقيب في القسم الشرقي من المملكة . وفي العام ١٩٤٣ اجاز لهم التنقيب في طول البلاد وعرضها . وعقد مع شركة ستاندرد اويل اتفاقاً يجيز لها مد انابيب عبر اراضي شبه الجزيرة العربية من الخليج الفارسي حتى البحر الاحمر .

حصل الاتفاق في نيسان ١٩٤٣ ، وفي تموز من العام نفسه اشترت الحكومة الاميركية اربعين بالمئة من اسهم الشركة وقررت ان تأخذ على عاتقها مد الانابيب فدلت بهذه الخطوة على اعترافها بالتدخل في الشرق الاوسط وتوسيع نطاق مصالحها فيه . وكانت شركات البترول الاميركية قد افلحت في الحصول على امتيازات في ايران حيث بدأت شركة « غولف اويل » تراحم الشركة الانكليزية - الايرانية . اما العراق فثمة مساعي اميركية للحصول على اسهم في الشركة التي تستثمر زيتها .

وفي مصر نالت احدى الشركات الاميركية امتيازاً بالتنقيب في منطقة مساحتها ٦١ الف كيلومتر مربع ، بينما لا تزيد مساحة الارض التي ينقب فيها الانكليز على ثلاثين الفاً . اما مشروع الانابيب الذي اخذت الحكومة الاميركية على عاتقها تحقيقه فقد قدرت تكاليفه بسبعمئة مليون دولار . ويتوقف الشروع في تنفيذه على نجاح المفاوضات الدائرة بين ممثلي شركة البترول السعودية وحكومات البلدان التي ستمر الانابيب في اراضيها .

يتضح بما تقدم ان سياسة الولايات المتحدة حيال الاسلام

تنبعث من خلالها رائحة البترول . ولكن الرأي العام الاسلامي يتتبع بقلق تطور النفوذ الاميركي في دياره وبحسب الف حساب للانقلاب العميق الذي سيطراً على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بفعل نشاط شركات التنقيب واتساع مشاريعها . فقد هبط الاقطار العربية وايران منذ ان وضعت الحرب اوزارها الوف الخبراء والمهندسين والمتقنين وموظفي الشركات ، وهجر البدو مضاربهم ليضعوا سواعدهم في خدمة الشركات ، وامتلات المدن بانباء الارياف وقد هبطوها ليؤمنوا لانفسهم عملاً في ورش المهندسين الاميركيين ، بحيث لن يمضي طويل وقت حتى تتفسخ الاخلاق وتنشأ في ديار الاسلام طبقة بروليتاريا تضيق بها وبمطالبها صدور المؤمنين المحافظين . قلنا في مستهل هذا الفصل ان اهتمام الولايات المتحدة بالشؤون الاسلامية كان عادياً قبل الحرب العالمية الثانية . وقد تجلّى هذا الاهتمام بقيام الجامعات والمصانع والمؤسسات الصحية والتبشيرية في آسيا الوسطى والشرق الاوسط وافريقيا (المصانع في الافغان والعراق ، والمعاهد والمستشفيات في لبنان ومصر|ايران) . وقد مثلت الجامعات الاميركيات في استنبول وبغروت دوراً كبيراً في نشر العلوم والمعارف

اما اليوم فديار الاسلام كلها توشك ان تدخل في دائرة النفوذ الاميركي ، النفوذ الذي يتجلى بشكل خمسة : الدبلوماسي ، والزراعي ، والمالي ، والعسكري ، والثقافي .

فالنشاط الدبلوماسي يبذل في كل مكان للولايات المتحدة فيه مصالح قائمة او قيد الانشاء . وقد رأينا وزراء هذه البلاد المفوضين يشجعون

الحركات الاستقلالية في الشرق العربي ، ولا يزال السوريون واللبنانيون يذكرون مواقف المستر وودسورث ويصفونه بأنه صديق الشهابين ونصيرهما .

ويتجلى العمل الزراعي بتطوع المهندسين الاميركيين والدوائر الزراعية الاميركية لارشاد البلاد الاسلامية الى احدث الوسائل والطرق المؤدية الى تحسين المواسم واستغلال الاراضي وتعميم الري . اما العمل المالي فيقوم على سياسة القروض ، وهي الناحية الرسمية من العمل ، وعلى نشاط المؤسسات المالية والمصرفية . ويحاول الاميركيون ان يحددوا النقد في البلاد العربية ويربطوه بالدولار ، مع العلم ان العملة في معظم الاقطار الناطقة بالضاد مرتبطة بالجنه . وقد اخبر هذا التنافس بين الدولار والجنه زوال ظروف الحرب الاستثنائية في دنيا العرب .

بقي العمل العسكري . وهو يتجلى بايفاد بعثات من الضباط الاميركيين لتدريب الجيوش العربية (كالبعثة الاميركية الى اليمن) وبالموانيء والطرق والسكك الحديدية التي انشأتها السلطات والشركات الاميركية (الطريق بين الدار البيضاء والقاهرة ، والخط الحديدي الذي يربط الخليج الفارسي بالرياض) . وليس ثمة ما يجيز الاعتقاد ان الولايات المتحدة متغلى عن هذه المنشآت التي اقتضتها ظروف الحرب ما دام في وسعها استخدامها في مشاريعها الاقتصادية الواسعة . يعترف الاميركيون انهم احرزوا هذا المركز المرموق في الديار الاسلامية بفضل ظروف الحرب ، ويعتقدون انهم مدينون بتسهيل مهمتهم الى سمعتهم العاطرة التي تجعل منهم ، في نظر الشعوب

المستضعفة ، أمة ديموقراطية مجردة من المطامع . لهذا نراهم يتحاشون الظهور بظهر الدولة القوية التي تسعى الى الحياول محل المستعمرين الاوروبيين في العالم الاسلامي . وفي الوقت نفسه تحاول الولايات المتحدة نشر ثقافتها في الاقطار العربية والاسلامية باشاء معاهد وجامعات جديدة في عواصمها ، وبفتح ابواب المعاهد الاميركية في وجوه الطلاب الراغبين في التخصص من ابناء الشرقين الاوسط والادنى .

ويعتقد الاميركيون انهم يستطيعون الاعتماد على الجاليات العربية في بلادهم في التمكين لنفوذهم في افريقيا وآسيا الصغرى . والعرب الغاربون في الولايات المتحدة من انشط العناصر الغربية وافضلها تنظيمًا . ويربي عددهم على نصف مليون . وفي نيويورك وحدها مئة الف لبناني ومصري وسوري . ولهؤلاء صحفهم وانديتهم ومصارفهم ومدارسهم . وقد زادتهم الغربية استمساكاً بعروبيتهم . وبديهي ان يؤثر هؤلاء المفتربون ان يروا الرساميل الاميركية تستشر في اوطانهم والثقافة الاميركية تنتشر في ربوعها ، على رؤية هذه الاوطان فريسة المطامع الاستعمارية الاوروبية .

سياسة روسيا السوفياتية

لئن تكن السياسة الاميركية حبال الاسلام قد رسمت خطوطها الشركات البترولية ، فقد رسمت خطوط السياسة الروسية حبال الشعوب الاسلامية قوة لا تقل شأنًا عن الشركات ، غنينا الدولية الثالثة .

مرت السياسة الروسية حيال الاسلام في مراحل ثلاث ، ففي المرحلة الاولى (١٩١٧ - ١٩٢٠) حرص السوفييات على استرضاء الاقليات المسلمة التي كانت تتبوم بالنير القيصري فانشأوا جمهوريات مستقلة في القفقاس المسلم واحترموا الشتمائر الاسلامية ولم يتعرضوا للمشايخ باذى ، بينما كان اضطهاد رجال الكنيسة الارثوذكسية قائماً على قدم وساق .

وفي المرحلة الثانية (١٩٢١ - ١٩٢٨) قرر السوفييات اخضاع الجمهوريات المسلمة للنظام الشيوعي وشرعوا بتنفيذ المنهاج التالي :

١ - توزيع الاراضي الموات على صغار الفلاحين المسلمين .

٢ - حل الهيئات الدينية .

٣ - القضاء على الحركة الطورانية .

٤ - منع مذهب الاتحاد السوفيياتي من اداء فريضة الحج

لاعتبارات وطنية .

الا ان موسكو لم تسفر عن نيائهما كاهلة قبل ١٩٢٩ ، ففي هذا العام خطط خطوة حاسمة نحو بلشفة المسلمين غير ملتفتة الى احتجاجات رجال الدين ، فحررت المرأة ، واقفلت المساجد ، ووضعت المشايخ المعارضين في معسكرات الاعتقال ، وحولت جامعة سمرقند الى ناد يفتشاه الملحدون .

وقد رأى زعماء الاقوام الاسلامية ان ينقذوا ما يمكن انقاذه بايجاد حل وسط . فعهدوا الى المفتي الاكبر رازوليف بان يتفاهم والبلاشفة ، فاستطاع المفتي اقناع موسكو بان بلشفة المؤمنين لا يمكن ان تتم دفعة واحدة ، وانخذ على عاتقه تحقيق هذا الهدف تدريجاً .

وصارت الامور على ما يشتهي الفريقان الى ان شعر السوفييات بان هبوب العاصفة وشيك ، فعدلوا سياستهم حيال مسامي الاتحاد السوفياتي (المرحلة الثالثة ١٩٣٨) بان اطلقوا المعتقلين ورفعوا رقابتهم عن الاوقاف الاسلامية . ولكنهم تحولوا الى انصار الوحدة الطورانية فاعملوا فيهم السيف ، وعهدوا الى المدن ذات الاسماء التركية فاطلقوا عليها اسماء جديدة ، ووعدوا الجمهورية المسماة بتوسيع صلاحياتها بعد انتهاء النزاع ، بحيث يكون لها ممثلوها الدبلوماسيون في الخارج . وقد ارادت موسكو بهذا ان تبعث الى الدول الاسلامية بممثلين يعملون على توجيه السواد بما يتفق ومصلحة الاتحاد السوفياتي .

يتضح مما تقدم ان سياسة الاتحاد السوفياتي حيال المسلمين رعايا الاتحاد املتها اعتبارات محلية بحت . اما سياسته حيال الاسلام عموماً فقد املتها مصالحه الدولية واستوحى الكرملين خططها من اضبارات العهد القيصري ، وعهد بالتنفيذ الى الدولية الثالثة (الكومنتون) . وقد ادرك السوفييات ان الحادهم قد يفسد خططهم في ديار الاسلام وفي الاوساط المسيحية التي كان القياصرة يتدخلون في شؤون الامبراطورية العثمانية بحجة حمايتها ، فاعلنوا ان البلشفية ليست مادة للتصدير ، وان الاتحاد السوفياتي يتبع بعطف الحركات التحررية في البلدان الخاضعة للسيطرة الاجنبية .

وقد رسم تشيرين لمواطنيه خطة العمل فقال ان الشعوب الشرقية المستعبدة ستجد في روسيا الحماة حليفاً طبيعياً اذا عرف السوفييات ان يستميلوا هذه الشعوب بتجردهم ، وان يثيروها ضد الاستعمار والاجانب . وكانت روسيا السوفياتية في مستهل عهدها ، تنامس الطريق.

الى الاستقرار ، فعملت بنصيحة تشيشرين في وقت كانت الانكليز والفرنسيون يقتسمون فيما بينهم البلاد العربية ، فحمد الرأي العام الاسلامي للروس الحمر بواد طيبة منها اعادة بعض المناطق القفقاسية الى تركيا والتنازل عن الامتيازات الروسية في ايران وتشجيع الحركات الاستقلالية في افريقيا الشمالية الفرنسية ومصر والهند والافغان .

وعقد في باكو وموسكو بين ١٩٢٠ و ١٩٢٤ اربعة مؤتمرات اسلامية حضرها مندوبو معظم البلدان الخاضعة للسيطرة الاستعمارية واتخذت هذه المؤتمرات مقررات ضد الانكليز والفرنسيين .

وفي هذه الاثناء كانت الدولية الثالثة وممثلو روسيا الدبلوماسيون يهدون السبيل في الخارج امام الاستعمار السوفياتي او المطامع القيصريّة بشكلا الجديد . وقد تمكن رسل الدولية الثالثة من تأليف احزاب شيوعية في اربعة اقطار العالم ، تتولى قيادة الحركات العمالية وتقف بالمرصاد للمطامع الانكليزية وغيرها ، وتخدم قدر طاقتها المشاريع السوفياتية . الا ان اللعبة البولشفية ما عثمت حتى اتضحت لكل ذي عينين ، وادركت الاقوام الاسلامية التي خدعتها الظواهر وغرر بها رسل موسكو ان العطف الذي ابداه الروس على امانيتها القومية كان ذراً للرماد في العيون ، وان السوفيات يطمحون بعد تحريرها الى الحلول محل المستعمر السابق . (وهو ما وقع لمقاطعة تركستان الصينية التي شجعها السوفيات على تحطيم النير الصيني ، وهي اليوم شبه محمية سوفياتية) .

واستخدم الروس في الحرب الاخيرة الاعزاب الشيوعية في البلدان

« التي حرروها » في تحقيق اهدافهم التوسعية ، وكادت لعبتهم في شمال ايران تطيح باستقلال هذه الدولة لو لم يتدخل الانكلوسكسون مدفوعين بالرغبة في حماية مصالحهم البترولية هناك . وقد استغلت الدول الرأسمالية هذه الحوادث وقامت في ديار الاسلام بدعايات منظمة ضد البلشفية ، محاولة استفزاز الشعوب الديني لان المبادئ الشيوعية منافية لتعاليم الدين الحنيف .

ويلاحظ ان الصراع بين الاستعمار الغربي والاستعمار الروسي بدأ يفقد طابعه العقائدي منذ ان وضعت الحرب اوزارها . فقد كانت السوفيات قبل الحرب يوغرون صدور المسلمين ضد الرأسمالية مستعبدة الشعوب ، اما اليوم فنراهم يضربون على وتر القومية داعين الشعوب الاسلامية الى الاتحاد والتحرر من نير الاجنبي . اما الدول الغربية فانها تحت الحكومات الاسلامية على مكافحة الشيوعية المحلية وتتخذ من حوادث ايران ومن موقف روسيا ازاء تركيا دليلاً على ما يببته السوفيات للاقوام المستضعفة .

الرسائل والبشيرة المسيحية

ادى الجهاد والحملات الصليبية الى افساد العلاقات بين المسيحية والاسلام ، وادى استمرار القطيعة في حقبة المهادنة الى تطور هذين العالمين ، كل على حدة ، واقتضرت العلاقات بينهما على تبادل السفراء تبادلاً محدود النطاق .

ولكن ما ان فتح الشرق ابوابه في وجه الغرب حتى هبطته الرسائل الكاثوليكية والبروتستنتية ، فتوفرت على درس اللغات

الشرقية وعملت على نشر العلوم واستخراج الكنوز الدفينة في بطون التواريخ . الا ان نشاطها لم يكن مجرداً . فهي قد هبطت ديار الاسلام لتبشرها بتعاليم الانجيل وتخدم مشاريع دول الغرب التوسعية . ويمكن القول ان مجهودها في هذا الحقل أوتي ثماره . اما رسالتها التبشيرية فقد ظلت نتائجها قافية بالقياس الى الجهود المبذولة . ذلك بان المسلمين لم يأخذوا من نتاج الغرب الا ما يتفق وتعاليم الكتاب ، ونفذوا ما عداه . ولما ذهبت عبثاً محاولات الرسائل الكاثوليكية والبروتستنتية في سبيل « هداية » الشرقيين ، بدلوا « تكتيكهم » التبشيري ، وراحوا يضربون على وتر جديد محاولين ايجاد وجوه للشبه بين تعاليم الانجيل والآيات القرآنية ، فجاراهم المؤمنون الى حد ، ولكنهم ظلوا منكسرين ، يابون الذهاب بعيداً في هذا المضمار .

وفي القرن التاسع عشر اقتنعت الرسائل بعقم مجهودها في ديار الاسلام ، فحصر معظمها نشاطه في حقل التربية والتعليم وفي الاعمال الخيرية . اما الرسائل التي ابت الى المضي في التبشير فقد قضى على نشاطها في القرن العشرين التدابير السلبية التي لجأت اليها الحكومات المحلية بتحريض من العلماء .